يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا

المنار

١٣١٥

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه اولئك الذين هداهم الله واولئك هم اولو الالباب

(قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « مناراً » كمنار الطريق)

(مصر في يوم الخميس غرة ذي الحجة سنة ١٣١٨ — ٢١ مارث (اذار) سنة ١٩٠١)

مسئلة الغرانيق . وتفسير الآيات

تمهيد . مصارعة الحق والباطل . رفع الاسلام مقام الانبياء وحكمه بعصمتهم . عبث عشاق الروايات وافسادهم في الدين . الروايات واختلافها فى مسئلة الغرانيق . مخالفة المحققين لها . الرجوع الى اهل العلم الصحيح في ازالة الحيرة . الطعن فى رواية تفسير التمني بالقراءة . الطعن فى حديث الغرانيق رواية . الطعن فيه دراية . عصمة الانبياء . الوجوه الدالة على بطلان حديث الغرانيق . تفسير الآيات على الوجه الموافق لأسلوب القرآن المنطبق على العقائد الصحيحة . السياق وسابق الآيات . التفسير الاول وفيه المقابلة بين الآيات وآيات سورة آل عمران فى المحكمات والمتشابهات . التفسير الثاني . اماني الانبياء . سنة الله فيهم وفى اقوامهم . تأويل ثالث . وسواس الشيطان . اللغات فى الغرنوق ومعانيه . عدم ملاءمة معانيه لوصف الآلهة . انتفاء نقل ذلك عن العرب . الجزم بان الحديث من وضع الاعاجم .

حديث الغرانيق صار مشهوراً عند المتأخرين لوجوده فى كثير من كتب التفسير التى تتناولها الايدي ولو صح لكان اكبر شبهة على الدين ولكن المقلد البحت الذى لا نظر له لا يبالي بالشبه ويقبل كل نقل ، وان

كان الفرع فيه ينفى الاصل ، وطلاب الغنت يتشبثون بأهداب الشبه فيجعلونها معاول تهدم الاركان الثابتة ، وتنفى القضايا المبرهنة . ولذلك كثر الطعن فى هذه الايام ، بدين الأسلام ، من دعاة النصرانية ، وبعض المفتونين بالشبه المادية ، واقوى نكاية لهؤلاء الطاعنين ماقاله بعض المفسرين فى مسئلة زيد وزينب وفى مسئلة الغرانيق ومسئلة أخرى . ولما كان كشف الشبهات وتخليص الحق من شوائب الباطل على وجه تثق به النفوس ، وتطمئن اليه القلوب ، من وظائف أئمة الدين ، واكابر العلماء الراسخين ، لجأ قوم الى حكيم الاسلام فى هذا العصر ، وامام المسلمين فى كل بادية ومصر ، مولانا الاستاذ الأكبر الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية ، فى أن يجلي لهم الحق فى المسئلة الاولى فاجاب ، بما هو الحكمة وفصل الخطاب ، ونشرناه فى المنار ، ليشتهر فى الاقطار ، ثم سأله آخرون فى هذه الايام عن الثانية . فاجاب بما أزال الالتباس ، ومحّص ما فى صدور الناس ، جعل المسئلة أولا موضوع درس فى الازهر حضره الجماهير ، والجم الغفير ، ثم كتبها لتنشر فى المنار ، وتتناقل فى الامصار ، وهاك ما جاء من فضيلته ، بنصه وعبارته :

« وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيّ الا اذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم . ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد . وليعلم الذين اوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهادي الذين آمنوا الى صراط مستقيم . ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب

يوم عقيم »

قد يجد الباطل انصاراً ، فيتبوأ من نفوسهم داراً ، ويتخذ له منها قراراً ، وتذهب على ذلك الايام بعد الايام ، وتمضي عليه الاعوام إثر الاعوام ، وهو يلعب بأهله ، ويقلب اهواءهم بحياله ، حتى يقصروا نظرهم عليه ، ولا يجدوا ملجأ منه الا اليه ، فاذا أوتوا من ناحيته رضوا ، واذا عرض لهم الحق اعرضوا ، ولا يزالون كذلك الا أن تحل به عراهم ، وتفسد بماله قواهم ، والحق لا يزال يعرض نفسه ، يستخدم مرة لينه واخرى بأسه ، وهو الشابُّ الذى لا يهرم ، والعامل الصبور الذى لا يسأم ، وانما يعرض بوجهه عن الاغبياء ، ويُولّي ظهره الاشقياء ، ثم لا ينفك يرحمهم ، ولا يبرح يتعهدهم ، يسفر عليهم محياه ، ويرسل اليهم اشعة من سناه ، فاذا وافاهم وقد وهنت مننهم ،[1] ومرهت عيونهم ،[2] وحلك ليلهم ، واشتد خبلهم ، صاح بهم منه صائح ، ورمحهم من جنده رامح ،[3] فقلق بالباطل مكانه ، وزلزلت من حوله اركانه ، وفزع يطلب النصير ، وثار يلتمس المجير ، فلا يجد الا اسباباً تقطعت به ، وأعضاداً فُتَّ فيها بسببه ،[4] وقد رنق قومه ،[5] وعبس يومه ، فيحملق الى الحق يأخذه ببصره ، ويستنزله بنظره ، ولكن خاب الظن ، وبطل الفن ، ثم لا يلبث وهو الباطل ان يتحول عنده اليأس املاً ، ويجد من اليبس بللاً ، فيظن وهو هو ان الحق ناصره ، وان

---

(١) المنن جمع منة بالضم وهي القوة (٢) مرهت العين خلت من الكحل او فسدت لتركه (٣) رمحه طعنه بالرمح . والرامح ذو الرمح (٤) الفت الدق والكسر بالأصابع ويقولون « فت فى عضده » اذا كسر قوته وفرق عنه انصاره (٥) رنق القوم بالمكان (بتشديد النون) اقاموا وفى الامر خلطوا الرأى والطائر خفق بجناحيه ورفرف ولم يطر

ستقوى به اواصره ، فيستنصر بجنده ، ويطلب النجدة من عنده ، واقرب ما يكون خصم الى الهلكة اذا اطمأن الى عدوه ، وامل الخير فى دنوه ، هذا شأن الباطل واهله ، مع تقلبه فى ملله ونحله ،

يعلم كل ناظر فى كتابنا الالهى (القرآن) ما رفع الاسلام من شأن الانبياء والمرسلين ، والمنزلة التى احلهم من حيث هم حملة الوحي وقدوة البشر فى الفضائل وصالح الاعمال وتنزيهه اياهم عما رماهم به اعداؤهم وما نسبه اليهم المتعمدون بأديانهم . ولا يخفى على احد من اهل النظر فى هذا الدين القويم انه قد قرر عصمة الرسل كافة من الزلل فى التبليغ والزيغ عن الوجهة التى وجهالله وجوههم نحوها من قول او عمل وخص خاتمهم محمداً صلى الله عليه وسلم فوق ذلك بمزايا فصلت فى ثنايا الكتاب العزيز

عصمة الرسل فى التبليغ عن الله اصل من اصول الاسلام شهد به الكتاب وايدته السنة واجمعت عليه الامة . وما خالف فيه بعض الفرق فانما هو فى غير الاخبار عن الله وابلاغ وحيه الى خلقه . ذلك الاصل الذى اعتمدت عليه الاديان حق لا يرتاب منه ملي يفهم ما معنى الدين

مع ذلك لم يعدم الباطل فيه اعواناً يعملون على هدمه وتوهين ركنه اولئك عشاق الروايات وعبدة النقل . نظروا نظرة فى قوله تعالى : « وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبي » — الآية وفيما روي عن ابن عباس (رضى الله عنهما) من أن تمنى بمعنى قرأ والامنية القراءة فعمي عليهم وجه التأويل الحق على فرض صحة الرواية عن ابن عباس فذهبوا يطلبون ما به يصح التأويل فى زعمهم فقيض لهم من يروي فى ذلك احاديث تختلف طرقها وتتباين الفاظها وتتفق فى ان النبي صلى الله عليه وسلم عند ما بلغ منه اذى المشركين

مابلغ واعرضوا عنه وجفاه قومه وعشيرته لعيبه اصنامهم وزرايته على آلهتهم اخذه الضجر من اعراضهم ولحرصه على اسلامهم وتهالكه عليه تمنى ان لا ينزل عليه ماينفرهم لعله يتخذ ذلك طريقاً الى استمالتهم واستنزالهم عن غيهم وعنادهم فاستمر به ماتمناه حتى نزلت عليه سورة « والنجم اذا هوى » وهو فى نادى قوله وروي انه كان فى الصلاة وذلك التمنى آخذ بنفسه فطفق يقرأها فلما بلغ قومه : ومناة الثالثة الاخرى « ألقى الشيطان فى امنيته » التى تمناها بان وسوس له بما شيعها به فسبق لسانه على سبيل السهو والغلط فمدح تلك الاصنام وذكر ان شفاعتهن ترتجي . فمنهم من قال انه عندما بلغ « ومناة الثالثة الاخرى » سها فقال : تلك الغرانيق العلى . وان شفاعتهن لترتجى . ومنهم من روى (الغرانقة العلى) ومنهم من روى (ان شفاعتهن ترتجى) بدون ذكر الغرانقة والغرانيق . ومنهم من قال انه قال (وانها لمع الغرانيق العلى) ومنهم من روى (وانهن لهن الغرانيق العلى . وان شفاعتهن لهي التى ترتجى) ففرح المشركون بذلك وعند ما سجد فى آخر السورة سجدوا معه جميعاً

قال ابن حجر العسقلانى : وتعدد الطرق وصحة ثلاثة منها وان كانت مرسلة يدل على ان للواقعة اصلاً صحيحاً . وهذه الاسانيد الصحيحة — فى رأيه — وان كانت مراسيل يحتج بها من يرى الاحتجاج بالحديث المرسل بل ومن لا يراه كذلك لانها متعددة يعضد بعضها بعضاً اه ولولا خوف التطويل لاتيت بجميع تلك الروايات ما صح عنده منها وما لم يصح ولكن لا أرى حاجة اليه فى مقالي هذا

روى ذلك ابن جرير الطبري وشايعه عليه كثير من المفسرين . وفى

طباع الناس ألفُ الغريب ، والتهافت على العجيب ، فولعوا بهذه التفاسير واتخذوها عقدة إيمانهم حتى ظنوا — وبعض الظن اثم — ان لا معدل عنها ، ولا سبيل في فهم الآية الى سواها ، ونسوا ما رآه جمهور المحققين في تأويلها وذهب اليه الائمة في بيانها ، حتى ثارت ثائرة الشبه هذه الايام في نفوس كثير منهم وهم يزعمون انهم مسلمون واحسوا ان ذلك الضرب من التفسير لا يتفق مع اصل العصمة في التبليغ وان فيه من الحجة للعدو مالا سبيل الى دفعه فلجأوا الى اهل العلم الصحيح يلتمسون منهم بيان المخرج مما سقطوا فيه . وتوهموا انهم يقررون لهم ما الفوا ، ثم ينقذونهم من الحيرة مع ثباتهم على ماعرفوا ، ولكن ضل رأيهم ، وخاب ظنهم . وسيقامون على المنهج ، ويرون الحق ناصعاً ابلج

في صحيح البخاري : وقال ابن عباس في « اذا تمنى القى الشيطان في امنيته » : اذا حدّث القى الشيطان في حديثه فيبطل الله ما يلقي الشيطان ويحكم الله آياته . ويقال امنيته قراءته « الا اماني » يقرأون ولا يكتبون اه فتراه حكى تفسير الامنية بالقراءة بلفظ (يقال) بعد ما فسرها بالحديث رواية عن ابن عباس وهذا يدل على المغايرة بين التفسيرين فما يدعيه الشراح ان الحديث في رأي ابن عباس بمعنى التلاوة يخالف ظاهر العبارة ثم حكايته تفسير الامنية بمعنى القراءة بلفظ (يقال) يفيد انه غير معتبر عنده

وقال صاحب الابريز ان تفسير تمنى بمعنى قرأ والامنية بمعنى القراءة مروي عن ابن عباس في نسخة علي بن ابي طلحة عن ابن عباس ورواها علي ابن صالح كاتب الليث عن معاوية بن صالح عن علي بن ابي طلحة عن ابن عباس وقد علم ما للناس في ابن ابي صالح كاتب الليث وان المحققين على

تضعيفه . اهـ — هذا ما فى الرواية عن ابن عباس وهى اصل هذه القصة وقد رأيت ان المحققين يضعفون راويها

واما قصة الغرانيق فمع مافيها من الاختلاف الذى سبق ذكره جاء فى تتميمها ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يفطن لما ورد على لسانه وان جبريل جاءه بعد ذلك فعرض عليه السورة فلما بلغ الكلمتين قال له ما جئتك بهاتين فحزن لذلك فأنزل الله عليه « وما ارسلنا » الآيات تسلية له كما انزل لذلك قوله : « وان كادوا ليفتنونك عن الذى اوحينا اليك لتفتريَ علينا غيره واذاً لاتخذوك خليلاً . ولولا أن ثبتناك لقد كدتَ تركن اليهم شيئاً قليلاً . اذاً لأذقناك ضعفَ الحيوةِ وضعفَ المماتِ ثم لاتجد لك علينا نصيراً . » وفى بعض الروايات : ان حديث الغرانيق فشا فى الناس حتى بلغ ارض الحبشة فساء ذلك المسلمين والنبي صلى الله عليه وسلم فنزلت « وما ارسلنا » الآية . قال القسطلانى فى شرح البخاري : وقد طعن فى هذه القصة وسندها غير واحد من الائمة حتى قال ابن اسحق وقد سئل عنها : هى من وضع الزنادقة اهـ وكفى فى انكار حديث ان يقول فيه ابن اسحق انه من وضع الزنادقة مع حال ابن اسحق المعروفة عند المحدثين

وقال القاضي عياض : ان هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه أحد بسند متصل سليم وانما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم . ثم نقل عن ابى بكر ابن العلاء ما يدل على سقم الرواية واضطراب الرواة فيها وما يقضي عليها بالوهن والسقوط عن درجة الاعتبار . وقال الامام ابو بكر ابن العربى — وكفى به حجة فى الرواية والتفسير — : ان جميع ما ورد فى هذه

القصة لا أصل له .

قال القاضي عياض والذي ورد في الصحيح أن النبي صلى الله عليه سلم قرأ والنجم وهو بمكة فسجد معه المسلمون والمشركون والجن والانس اه وقد يكون ذلك لبلاغة السورة وشدة قرعها وعظم وقعها . ثم قال القاضي : قد قامت الحجة واجمعت الامة على عصمته صلى الله عليه وسلم ونزاهته عن مثل هذه الرذيلة اما من تمنيه ان ينزل عليه مثل هذا من مدح آلهة غير الله وهو كفر أوان يتسود عليه الشيطان ويشبه عليه القرآن حتى يجعل فيه ماليس منه ويعتقد النبي صلى الله عليه وسلم أن من القرآن ما ليس منه حتى يُفهمه جبريل عليه السلام وذلك كله ممتنع في حقه صلى الله عليه وسلم أو يقول ذلك النبي صلى الله عليه وسلم من قبل نفسه عمداً وذلك كفر او سهواً وهو معصوم من هذا كله وقد قررنا بالبراهين والاجماع عصمته صلى الله عليه وسلم من جريان الكفر على لسانه أو قلبه لا عمداً ولا سهواً . او ان يشبه عليه مايلقيه الملك مما يلقي الشيطان او يكون للشيطان عليه سبيل . اوان يتقوّل على الله لا عمداً ولا سهواً ما لم ينزّل عليه وقد قال الله تعالى « ولو تقوّل علينا بعض الاقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين » وقال « إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا » (ووجه ثان) وهو استحاله هذه القصة نظرا وعرفاً وذلك ان هذا الكلام لو كان كما روي لكان بعيد الالتئام ، متناقض الاقسام ، ممتزج المدح بالذم ، متخاذل التأليف والنظم ، ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم ومن بحضرته من المسلمين ، وصناديد المشركين ، ممن يخفى عليه ذلك . وهذا لا يخفى على ادنى متأمل فكيف بمن رجح حلمه ، واتسع في

باب البيان ومعرفة فصيح الكلام عليه ، (ووجه ثالث) انه علم من عادة المنافقين ، ومعاندة المشركين ، وضعفة القلوب والجهلة من المسلمين ، نفورهم لأول وهلة ، وتخليط العدو على النبي صلى الله عليه وسلم لأقل فتنة ، وتعييرهم المسلمين والشماتة بهم الفينة بعد الفينة ،(١) وارتداد من في قلبه مرض ممن اظهر الاسلام لادنى شبهة ، ولم يحك احد في هذه القصة شيئاً سوى هذه الرواية الضعيفة الاصل . ولو كان ذلك لوجدت قريش بها على المسلمين الصولة ، ولأقامت بها اليهود عليهم الحجة ، كما فعلوا مكابرة في قصة الاسراء . قال : ولا فتنة اعظم من هذه البلية لو وجدت ، ولا تشغيب للمعادي حينئذ اشد من هذه الحادثة لو امكنت ،(٢) وما ورد عن معاند فيها كلمة ، ولا عن مسلم بسببها بنت شفة ، فدل على بطلها ، واجتثاث اصلها ، ولا شك في ادخال بعض شياطين الانس والجن هذا الحديث على بعض مغفلي المحدثين ، ليلبس به على ضعفاء المسلمين ، (ووجه رابع) ذكر الرواة لهذه القصة ان فيها نزلت « وان كادوا ليفتنونك عن الذي اوحينا اليك » الآيتان . وهذان الآيتان تردان الخبر الذي رووه لأن الله تعالى ذكر انهم كادوا يفتنونه حتى يفتري ولولا ان ثبته لكاد يركن اليهم شيئاً قليلاً . فمضمون هذا ومفهومه ان الله عصمه من ان يفتري وثبته حتى لم يركن اليهم قليلاً فكيف كثيراً . وهم يروون في أخبارهم الواهية انه زاد على الركون والافتراء بمدح آلهتهم وانه صلى الله عليه وسلم قال : افتريت على الله وقلت ما لم يقل . وهي تضعف الحديث لو صح فكيف ولا صحة له ؟ وهذا مثل قوله تعالى في الآية الاخرى « ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة

(١) الفينة كالهنية الساعة والحين (٢) التشغيب تهييج الشر

منهم ان يضلوك وما يُضلون الا انفسهم وما يضرونك من شيء » . قال القشيري ولقد طالبه قريش وثقيف اذ مر بآلهتهم ان يقبل بوجهه اليها ووعدوه الايمان به ان فعل فما فعل ولا كان ليفعل . قال ابن الانباري ماقارب الرسول ولا ركن . انتهى المطلوب من كلام القاضي رحمه الله . وقد اورد بعد ذلك كثيراً من القول في توهين الرواية وتكذيبها

اما ما ذكره ابن حجر من ان القصة رويت مرسلة من ثلاث طرق على شرط الصحيح وانه يحتج بها الخ ما سبق فقد ذهب عليه كما قال في الابريز ان العصمة من العقائد التي يطلب فيها اليقين فالحديث الذي يفيد خرمها ونقضها لا يقبل على اي وجه جاء وقد عدّ الاصوليون الخبر الذي يكون على تلك الصفة من الاخبار التي يجب القطع بكذبها . هذا لو فرض اتصال الحديث فما ظنك بالمراسيل وانما الخلاف في الاحتجاج بالمرسل وعدم الاحتجاج به فيما هو من قبيل الاعمال وفروع الاحكام لا في اصول العقائد ومعاقد الايمان بالرسل وما جاؤا به فهي هفوة من ابن حجر يغفرها الله له

هذا ما قاله الائمة جزاهم الله خيراً في بيان فساد هذه القصة وانها لا اصل لها ولا عبرة برأي من خالفهم فلا يعتد بذكرها في بعض كتب التفسير وان بلغ اربابها من الشهرة ما بلغوا وشهرة المبطل في بطله لا تنفخ القوة في قوله ولا تحمل على الأخذ برأيه

تفسير الآيات

والآن ارجع الى تفسير الآيات على الوجه الذي تحتمله الفاظها وتدل عليه عباراتها والله اعلم

لا يخفى على كل من يفهم اللغة العربية وقرأ شيئاً من القرآن ان قوله تعالى « وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبي » الآيات يحكي قدراً قدر للمرسلين كافة لا يعدونه ، ولا يقفون دونه ، ويصف شنشنة عرفت فيهم وفى امهم . فلو صح ما قال اولئك المفسرون لكان المعنى ان جميع الانبياء والمرسلين قد سلط الشيطان عليهم ، فغلط فى الوحي المنزل اليهم ، ولكنه بعد هذا الخلط ينسخ الله كلام الشيطان ويحكم الله آياته الخ . وهذا من اقبح ما يتصور متصور فى اختصاص الله تعالى لانبيائه ، واختيارهم من خاصة اوليائه ، فلندع هذا الهذيان ولنعد الى ما نحن بصدده

ذكر الله لنبيه حالاً من أحوال الانبياء والمرسلين قبله ليبين له سنته فيهم . وذلك بعد أن قال « وان يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم وقوم لوط واصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير . » — الى آخر الآيات . ثم قال : « قل يا أيها الناس انما أنا لكم نذير مبين . فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم . والذين سعوا فى آياتنا معاجزين اولئك أصحاب الجحيم . وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي » الخ فالقصص السابق كان فى تكذيب الامم لأنبيائهم ثم تبعه الامر الالهي بأن يقول النبي صلى الله عليه وسلم لقومه انى لم أرسل اليكم الا لانذاركم بعاقبة ما انتم عليه ولأبشر المؤمنين بالنعيم واما الذين يسعون فى الآيات والادلة التى اقيمها على الهدى وطرق السعادة ليحولوا عنها الانظار ، ويحجبوها عن الابصار ، ويفسدوا اثرها الذى اقيمت لاجله ويعاجزوا بذلك النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين اى يسابقونهم ليعجزوهم ويسكتوهم عن القول وذلك

بلعبهم بالالفاظ وتحويلها عن مقصد قائلها كما يقع عادة من اهل الجدل والمماحكة هؤلاء الضالون المضلون هم اصحاب الجحيم . واعقب ذلك بما يفيد ان ما ابتلي به النبي صلى الله عليه وسلم من المعاجزة فى الآيات قد ابتلي به الانبياء السابقون فلم يبعث نبي فى امة الا كان له خصوم يؤذونه بالتأويل والتحريف ويعادونه امانيه ويحولون بينه وبين مايبتغي بما يلقون فى سبيله من العثرات . فعلى هذا المعنى الذى يتفق مع ما لقيه الانبياء جميعاً يجب ان تفسر الآية وذلك يكون على وجهين

﴿ الاول ﴾ ان يكون تمنى بمعنى قرأ والامنية بمعنى القراءة وهو معنى قد يصح وقد ورد استعمال اللفظ فيه . قال حسان بن ثابت فى عثمان رضى الله عنهما :

تمنى كتاب الله اول ليله وآخره لاقى حمام المقادر

وقال آخر

تمنى كتاب الله اول ليله تمنّى داود الزبور على رسل

غير ان الالقاء لا يكون على المعنى الذى ذكروه بل المعنى المفهوم من قولك « ألقيتُ فى حديث فلان » اذا ادخلت فيه ما ربما يحتمله لفظه ولا يكون قد اراده او نسبت اليه مالم يقله تعللاً بان ذلك الحديث يؤدى اليه . ونسبة الالقاء الى الشيطان لانه مثير الشبهات بوساوسه ، مفسد القلوب بدسائسه ، وكل ما يصدر من اهل الضلال يصح ان ينسب اليه ويكون المعنى : وما ارسلنا قبلك من رسول ولا نبي الا اذا حدث قومه عن ربه اوتلا وحياً انزل اليه فيه هدى لهم قام فى وجهه مشاغبون يحولون مايتلوه عليهم عن المراد منه ، ويتقولون عليه مالم يقله ، وينشرون ذلك بين الناس

ليصدوهم عنه ، ويعدلوا بهم عن سبيله ، ثم يحق الله الحق ، ويبطل الباطل ، ولا زال الانبياء يصبرون على ما كُذِّبوا وأوذوا ويجاهدون في الحق ولا يتلون بتعجيز المعجزين ، ولا بهزء المستهزئين ، الى ان يظهر الحق بالمجاهدة ، وينتصر على الباطل بالمجالدة ، فينسخ الله تلك الشبه ويجتثها من اصولها ، ويثبت آياته ويقررها ، وقد وضع الله هذه السنة في الناس ليتميز الخبيث من الطيب فيفتتن الذين في قلوبهم مرض وهم ضعفاء العقول بتلك الشبه والوساوس فينطلقون وراءها ويفتتن بها القاسية قلوبهم من اهل العناد والمجاحدة فيتخذونها سنداً يعتمدون عليها في جدلهم ثم يتمحص الحق عند الذين أوتوا العلم ويخلص لهم بعد ورود كل شبهة عليه فيعلموا انه الحق من ربك فيصدقوا به فتخبت وتطمئن له قلوبهم . والذين أوتوا العلم هم الذين رزقوا قوة التمييز بين البرهان القاطع الذى يستقر بالعقل في قرارة اليقين ، وبين المغالطات وضروب السفسطة التى تطيش بالفهم ، وتطير به مع الوهم ، وتأخذ بالعقل تارة ذات الشمال واخرى ذات اليمين ، وسواء ارجعت الضمير في « أنه الحق » الى ما جاءت به الآيات المحكمة من الهدى الالهى أو الى القرآن وهو أجلها فالمعنى من الصحة على ما يراه اهل التمكين .

هؤلاء الذين أوتوا العلم هم الذين آمنوا وهم الذين هداهم الله الى الصراط المستقيم ، ولم يجعل للوهم عليهم سلطاناً فيحيد بهم عن ذلك النهج القويم . واما الذين كفروا وهم ضعفاء العقول ومرضى القلوب او اهل العناد وزعماء الباطل وقساة الطباع الذين لا تلين افئدتهم ، ولا تبش للحق قلوبهم ، فأولئك لا يزالون في ريب من الحق او الكتاب لا تستقر عقولهم عليه ، ولا يرجعون في متصرفات شؤنهم اليه ، حتى تأتي ساعة هلاكهم

بغتة فيلاقون حسابهم عند ربهم . أو ان امتد بهم الزمن ، ومادّهم الاجل ، فسيصليهم « عذاب يوم عقيم » يوم حرب يسامون فيه سوء عذاب القتل او الاسر ، ويقذفون الى مطارح الذل وقرارات الشر ، فلا يُنتج لهم من ذلك اليوم خير ولا بركة ، بل يسلبون ما كان لديهم ويساقون الى مصارع الهلكة ، وهذا هو العقم فى اتم معانيه وأشأم درجاته

ما اقرب هذه الآيات فى مغازيها الى قوله تعالى فى سورة آل عمران « هو الذى أنزلَ عليك الكتابَ منه آيات محكمات هنّ أمُّ الكتاب وأُخر متشابهات . فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتّبِعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاءَ تأويله وما يعلم تأويله الا اللهُ . والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كلٌّ من عند ربنا وما يذّكر الا أولو الالباب » وقد قالَ بعد ذلك : «ان الذين كفروا لن تُغنيَ عنهم اموالهم ولا اولادهم من الله شيئاً وأولئك هم وَقود النار » ثم قالَ : « قل للذين كفروا ستُغلَبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد » الخ الآيات . وكأن احدى الطائفتين من القرآن شرح للاخرى . فالذين فى قلوبهم زيغ هم الذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم . والراسخون فى العلم هم الذين أوتوا العلم . وهؤلاء هم الذين يعلمون انه الحق من ربهم فيقولون آمنا به كل من عند ربنا فتخبت له قلوبهم وان الله لهاديهم الى صراط مستقيم . وأولئك هم الذين يفتتنون بالتأويل ، ويشتغلون بقالٍ وقيل ، بما يلقي اليهم الشيطان ، ويصرفهم عن مرامي البيان ، ويميل بهم عن محجة الفرقان ، وما يتكوّن عليه من الاموال والاولاد لن يغنى عنهم من الله شيئاً فستوافيهم آجالهم ، وتستقبلهم اعمالهم ، فان لم يوافهم الاجل على فراشهم ، فسيغلبون فى

هراشهم ،[١] وهذه سنة جميع الانبياء مع اممهم ، وسبيل الحق مع الباطل من يوم رفع الله الانسان الى منزلة يميز فيها بين سعادته وشقائه ، وبين ما يستبقيه ومايذهب ببقائه ، وكالا مدخل لقصة الغرانيق فى آيات آل عمران لا مدخل لها فى آيات سورة الحج : هذا هو الوجه الاول فى تفسير آيات « وما ارسلنا » الى آخرها على تقدير ان تمنّى بمعنى قرأ وان الامنية بمعنى القراءة والله اعلم

(الوجه الثانى فى تفسير الآيات) ان التمنى على معناه المعروف وكذلك الامنيـة وهى افعوله بمعنى المُنية وجمعها امانىّ كما هو مشهور . قال ابو العباس احمد بن يحيي : التمنى حديث النفس بما يكون وبما لا يكون . قال : والتمني سؤال الرب وفى الحديث « اذا تمنى احدكم فليتكثر فانما يسأل ربه » وفى رواية « فليكثر » . قال ابن الاثير : التمني تشهي حصول الامر المرغوب فيه وحـديث النفس بما يكون وما لا يكون . وقال ابو بكر : تمنيت الشيء اي قدرته واحببت ان يصير الىّ . وكل ما قيل فى معنى التمنى على هذا الوجه فهو يرجع الى ما ذكرنا ويتبعه معنى الامنية

ما أرسل الله من رسول ولا نبي ليدعو قوماً الى هـدى جديد أو شرع سابق شرعه لهم ويحملهم على التصديق بكتاب جاء به نفسه ان كان رسولاً او جاء به غيره ان كان نبياً بعث ليحمل الناس على اتباع من سبقه الا وله أمنية فى قومه وهى أن يتبعوه ويتجاوزوا الى ما يدعوهم اليه ، ويستشفوا من دائهم بدوائه ، ويعصوا اهوائهم باجابة ندائه ، ومامن رسول إلا وقد كان احرص على ايمان أمته ، وتصديقهم برسالته ، منه على طعامه

(١) الهراش المواثبة والمخاصمة

الذى يطعم ، وشرابه الذى يشرب ، وسكنه الذى يسكن اليه ، ويندو عنه ويروح عليه ، وقد كان نبينا صلى الله عليه وسلم من ذلك فى المقام الاعلى ، والمكان الاسمى ، قال الله تعالى : « فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً » وقال : « وما أكثرُ الناس ولو حرصت بمؤمنين » وقال : « أفأنتَ تُكرِهُ الناسَ حتى يكونوا مؤمنين » وفى الآيات ما يطول سرده مما يدل على امانيه صلى الله عليه وسلم بهداية قومه واخراجهم من ظلمات ما كانوا فيه الى نور ما جاء به

وما من رسول ولا نبي الا اذا تمنى هذه الامنية السامية القى الشيطان فى سبيله العثرات ، واقام بينه وبين مقصده العقبات ، ووسوس فى صدور الناس ، وسلبهم الانتفاع بما وهبوا من قوة العقل والاحساس ، فثاروا فى وجهه ، وصدوه عن قصده ، وعاجزوه حتى لقد يعجزونه ، وجادلوه بالسلاح والقول حتى لقد يقهرونه ، فاذا ظهروا عليه والدعوة فى بدايتها وسهل عليهم ايذاؤه وهو قليل الاتباع ضعيف الانصار ظنوا الحق من جانبهم وكان فيما القوه من العوائق بينه وبين ما عمد اليه فتنة لهم

غلبت سنة الله فى ان يكون الرسل من اواسط قومهم او من المستضعفين فيهم ليكون العامل فى الاذعان بالحق محض الدليل وقوة البرهان وليكون الاختيار المطلق هو الحامل لمن يدعى اليه على قبوله ولكيلا يشارك الحق الباطل فى وسائله ، او يشاركه فى نصب شراكه وحبائله ، أنصار الباطل فى كل زمان هم اهل الانفة والقوة والجاه والاعتزاز بالأموال والاولاد والعشيرة والاعوان والغرور بالزخارف ، والزهو بكثرة المعارف ، وتلك الخصال انما تجتمع كلها او بعضها فى الرؤساء وذوي المكانة

من الناس فتذهلهم عن انفسهم، وتصرف نظرهم عن سبيل رشدهم، فاذا دعا الى الحق داع عرفته القلوب النقية من اوضار هذه القوانن، وفزعت اليه النفوس الصافية والعقول المستعدة لقبوله بخلوصها من هذه الشواغل، وقلما توجد الا عند الضعفاء واهل المسكنة . فاذا التف هؤلاء حول الداعي وظافروه على دعوته قام اولئك المغرورون يقولون « ما نراك الا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك الا الذين هم اراذلنا بادي الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين » فاذا استدرجهم الله على سنته وجعل الجدال بينهم وبين المؤمنين سجالاً افتتن الذين في قلوبهم مرض من أشياعهم، وافتتنوا هم بما أصابوا من الظفر في دفاعهم، ولكن الله غالب على أمره فيمحق ما القاه الشيطان من هذه الشبهات، ويرفع هذه الموانع وتلك العقبات، ويهب السلطان لآياته فيحكمها، ويثبت دعائمها، وينشىء من ضعف انصارها قوة، ويخلف لهم من ذلتهم عزة، وتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الشيطان هي السفلى، « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض »

وفي حكاية هذه السنة الالهية التي أقام عليها الانبياء والمرسلين . تسلية لنبينا صلى الله عليه وسلم عما كان يلاقي من قومه ووعد له بأن سيكمل له دينه، ويتم عليه وعلى المؤمنين نعمته، مع استلفاتهم الى سيرة من سبقهم . « أحسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين . ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلو من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله الا ان نصر

الله قريب » هذا هو التأويل الثانى فى معنى الآية ويدل عليه ما سبق من الآيات ويرشد اليه سياق القصص السابق فى قوله «وان يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح » الخ . وانت ترى ان قصة الغرانيق لا تتفق مع هذا المعنى الصحيح . وهناك تأويل ثالث ذكره صاحب الابريز وانى أنقله بحروفه وما هو بالبعيد عن هذا بكثير . قال بعد ذكر امانى الانبياء فى امتهم وطمعهم فى اعتلائهم وشأن نبينا صلى الله عليه وسلم فى ذلك على نحو يقرب مما ذكرناه فى الوجه الثانى :

«ثم الامة تختلف كما قال تعالى « ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر » فأما من كفر فقد القى اليه الشيطان الوساوس القادحة له فى الرسالة الموجبة لكفره . وكذا المؤمن ايضاً لا يخلو ايضاً من وساويس لانها لازمة للايمان بالغيب فى الغالب وان كانت تختلف فى الناس بالقلة والكثرة وبحسب المتعلقات . اذا تقرر هذا فمعنى تمنى انه يتمنى لهم الايمان ويحب لهم الخير والرشد والصلاح والنجاح فهذه امنية كل رسول ونبى والقاء الشيطان فيها يكون بما يلقيه فى قلوب امة الدعوة من الوساويس الموجبة لكفر بعضهم ويرحم الله المؤمنين فينسخ ذلك من قلوبهم ويحكم فيها الآيات الدالة على الوحدانية والرسالة ويبقى ذلك عن وجل فى قلوب المنافقين والكافرين ليفتتنوا به . فخرج من هذا ان الوساويس تلقى اولاً فى قلوب الفريقين معاً غير انها لا تدوم على المؤمنين وتدوم على الكافرين» اه

وانت اذا نظرت بين هذا التفسير وبين ما سبقه تتبين الاحق بالترجيح لو صح ما قاله نقلة قصة الغرانيق لارتفعت الثقة بالوحي وانتقض الاعتماد عليه كما قاله القاضى البيضاوي وغيره ولكان الكلام فى الناسخ

كالكلام فى المنسوخ يجوز ان يلقى فيه الشيطان ما يشاء ولانهدم اعظم ركن للشرائع الالهية وهو العصمة . وما يقال فى المخرج عن ذلك يمجه منه الذوق ولا ينظر اليه العقل . على ان وصف العرب لآلهتهم بأنها الغرانيق العلى لم يرد لا فى نظمهم ولا فى خطبهم ولم ينقل عن احد ان ذلك الوصف كان جاريآ على ألسنتهم الا ما جاء فى معجم ياقوت غير مسند ولا معروف بطريق صحيح وهذا يدل على ان القصة من اختراع الزنادقة كما قال ابن اسحق وربما كانت منشأ ما أورده ياقوت . ولا يخفى ان الغُرنوق والغُرنَيق لم يعرف فى اللغة الا اسمآ لطائر مائى اسود أو ابيض أو هو اسم الكركى أو طائر يشبهه . والغرنيق (بالضم وكزنبور وقنديل وسَموأل وفردوس وقرطاس وعلابط) معناه الشاب الابيض الجميل وتسمى الخصلة من الشعر المفتلة الغرنوق كما يسمى به ضرب من الشجر . ويطلق الغرنوق والغرانق على ما يكون فى اصل العوسج اللين النبات . ويقال لِمّة غُرانقة وغُرانِقِيّة اى ناعمة تفيئها الريح او الغرنوق الناعم المستتر من النبات الخ ولا شىء فى هذه المعانى يلائم الآلهة والاصنام ، حتى يطلق عليها فى فصيح القول الذى يعرض على ملوك البلاغة وامراء الكلام ، فلا اظنك تعتقد الا انها من مفتريات الاعاجم ومختلقات الملبسين ممن لا يميز بين حر الكلام ، وما استعبد منه لضعفاء الاحلام ، فراج ذلك على من يذهله الولوع بالرواية ، عما تقتضيه الدراية ، « ربنا لا تُزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك انت الوهاب »

(الحديث المرسل) هو الذى سقط من سنده من بعد التابعى والجمهور يتوقفون عن الاحتجاج به لجواز ان يكون الساقط غير صحابى .